

السخرية والخطاب التهكمي في شعر علي الشرقي

◀ كاتب المقال: عواطف البوغبيش، جامعة آزاد الإسلامية، شادگان، إيران.

◀ عبدالكريم البوغبيش، جامعة آزاد الإسلامية، شادگان، إيران.

المقدمة:

تحاول هذه المقالة دراسة السخرية والخطاب التهكمي عند شاعر كبير من شعراء العراق عامةً والنجف خاصةً ألا وهو الشاعر الفذ علي الشرقي، وقد درسنا فنون السخرية في شعر الشاعر بصورة عامة، وخصصنا الجل الأكبر من هذه المقالة لدراسة ديوانه المعنون بديوان «عواطف وعواصف»، ويعدّ هذا الديوان جدير بالذكر لإحتوائه الكثير من الأبيات الساخرة الهادفة، وقبل الدخول في صلب الموضوع يلزم علينا أن نعرّف بهذه الشخصية الفذة ومن ثمّ التطرق إلى ما وجدنا من سخرية وخطاب تهكمي في شعر الشاعر.

نبذة عن حياة الشاعر:

علي الشّيخ جعفر بن محمد حسن بن أحمد بن موسى بن راشد ولقبه الشّروكي (الشّروقي) وقد غيّر لقبه بنفسه قبل أن يغيّر أدونيس لقبه من إسبر إلى أدونيس ربما بأزيد من نصف قرن! فهو ابن الجنوب الذي يفخر بنجفيته! يقول الدكتور مصطفى جمال الدين وهو ابن قرية المؤمنين (النجف منبئنا)! [1] وهذا ضرب من الحب والوفاء جدير بأمثال هؤلاء الكبار! أمّا والد الشّيخ علي فهو الشّيخ جعفر الذي يقول فيه شاعر ثورة العشرين ومؤرخها الدكتور محمد مهدي البصير (.. كان الشّيخ جعفر 1843-1892 واحداً من كبار فقهاء العراق وشعرانه في القرن التاسع عشر الميلادي). والشّيخ علي الشرقي من أسرة تنتمي إلى قبيلة الخاقاني العربية وموطن هذه الأسرة قصبية على ضفاف نهر الغراف الوداع العذب تابعة إلى قضاء الشّطرة التابع إلى محافظة الناصرية أو ذي قار! الناصرية يقول الدكتور الأديب صدام الأسدي في هذه المدينة وقد أحسن القول: تلك المدينة التي أثرت العراق بالكثيرين من الأفاضل والعلماء! ولعلّ جدّه الشّيخ موسى هو أول من ترك قصبه خيقان متوجّها إلى النجف لطلب العلم وهكذا يولد علي الشرقي في النجف 1892 م. ولم تكن الشّطرة مولده كما ذكر الدكتور صدام فهد الاسدي! ثم ذاق علي الشرقي اليتيم في سن مبكرة! فتكدبت أمه مشاق كثيرة فبددت عن صغيرها كآبة اليتيم! قال الشرقي في كتابه المطبوع الأحلام: حين مات والدي فترعرعت بحنان والدي الذي أنساني خسارة حذب الوالد! وإذا كانت امه شقيقة الشّيخ عبد الحسين الجواهري فقد انتقلت وطفلها إلى بيت أخيها لتعيش فيه! أي ان اليتيم علي الشرقي سيعيش في كنف خاله وخاله هو والد الشاعر محمد مهدي الجواهري! وكان الجواهري أصغر سناً من الشرقي فالجواهري مولود عام 1900 لكن الشّيخ عبد العزيز الجواهري الشقيق الأكبر للشاعر محمدمهدي كان ترباً للشرقي يكابر في العمر! وربما يكمن السبب في الحساسية بينهما إلى تنافسهما، بينما كان الجواهري أصغر من أن ينافس ابن عمته الشرقي! واليتيم والفاقة يكونان مصهراً للمعادن الأصيلة من الناس فتراهم مبكرين ومتفوقين وطموحين! ولقد كان بيت الشّيخ الجواهري مجلساً عامراً بالأدب وعلوم العربية والدين! [2]

ويذكر صاحب الترجمة من اعلام الأدب والعلوم الدينية كوكبة من المشاهير أمثال الشّيخ جواد الشّيببي والسيد باقر الهندي والسيد جعفر الحلبي والشّيخ عبد الكريم الجزائري والشّيخ هادي الشّيخ عباس والسيد حمودي المرعبي وآخرين! وشباب الشرقي مزيج من التمرّد المشاب بالحكمة فقد شكّل من اصدقائه الموافقين لمزاجه (شركة مقاومة الفقر) وربما يتقاطع محمول مقاومة الفقر مع دلالة مقاومة الجهل ولكن هذا هو تقرير الحال فحقّقوا نشاطاً محموداً في طبع الدواوين الشعرية والقصص والمذكرات فجابوا

العراق من أقصاه إلى أذناه ومن بين جهودهم الشّبّابية الجبّارة جمع شعر محمد سعيد الحبوبي ! كما جمعوا الكثير من مخطوطات بهينة دواوين ولم يُوفّقوا إلى طبعها ولا أحد يدري أين ذهبت وكيف اختفت ! . [3]

شعره:

كان الشّرقى جيّد الفارسية قراءة وكتابة ويقرأ للشّعراء الفرس الكبار فبانت الرّقة في قوله والنبرة في جملة والوصف الخلّاب في صورة ! ولم يصدر بعد موته شيء يذكر سوى رسالة جامعية باشراف الدكتور إبراهيم الوائلي و اعداد السيّد موسى الكرباسي طبعتها دار الشّؤون الثقافية طبعة رديئة مليئة بالأغلاط الطباعية ! ولم تعد طباعتها ! والشّرقى قارئ نهم كدأب جيله من المفكرين والمبدعين فهو يقول في نفسه حين بلغ الخمسين: [4]

لَهْفِي لِخَمْسِينَ مِنْ سِنِّي قَدْ انْدَرَسَتْ

فِي الْكُتُبِ بَحْثًا كَأَنِّي لُدُودَةُ الْكُتُبِ

يكتب الشّعر الغزلي فضلاً عن الشّعر الوطني وهو في الحالين مربّب وداعية جمال يصف الأستاذ مير بصري شعر علي الشّرقى (سحر وعطر وهو شعر نابض بالحياة صادق النّهجة واضح السّمات ينطق بلسان البلد والجيل ويحمل طابع العصر ورسالته لقد وفق الشّرقى لترديد نواح البلبل السّجين وصداح البلبل الطليق ولوعة الفلاح في كوخه وترجمته عن نزعات الشّعب المتطلع إلى الحياة والحرية ودعوة إلى الألفة والإخاء) ويصف جعفر الخليلي شعر الشّرقى فيقول: (خطى الشّرقى في الادب خطوات جريئة إذ احتوى شعره على جانب كبير من الوخز بالشّعائر والتقاليد والنقد والاستهجان خصوصاً بعد أن خرج من بيت خاله إلى زاوية في إحدى المدارس الدينية شعر فيها لأول مرة بنسيم الحرية والاستقلال وعرف الشّرقى بطراز نظمه وصيده المعاني وطريقة النسيج بكونه من أوائل المجددين في الشّعر لا بل لم يكن قد سبقه شاعر في نسج الفكرة وفق النمط المحبب لدى المتذوقين) ويقول الأستاذ محمد سعيد الصّكار (وكان علي الشّرقى بارز الحضور في المجال الثقافي من خلال ما كان ينشره من قصائد في موضوعات مختلفة، عراقية وعربية وعالمية، كقصيدته عن غرق الباخرة تيتانيك وعن الاتحاد السّوفياتي، وأوروبا والحرب الثانية وغيرها. وهو أكثر الشّعراء العراقيين، وربما العرب، استخداماً لمنجزات الحضارة والتقدم، إذ يحفل ديوانه بذكر السّيارة والطيارة والكهرباء والبطارية وماكنة التصوير وغير ذلك.

كان علي الشّرقى عراقياً أصيلاً، وعربياً متحمساً، وداعية جريئاً للتقدم الاجتماعي والسياسي والإقتصادي والذيني، لاذع النقد لمظاهر التخلف والوصولية والنفاق؛ كل ذلك بحس دقيق ولغة سهلة وعبارة بليغة، والتقاط حاذق للأمثال الشّعبية، حتى أنّ كثيراً من أشعاره ذهب مثلاً. [5]

السّخريّة والخطاب التّهكمي في شعر علي الشّرقى:

يعد علي الشّرقى من كبار الشّعراء الوطنيين العراقيين النجفيين والشاعر الكبير الشّيخ علي الشّرقى يتصدى للفرات الطاغي بعتاب مر مرارة الألم والمعاناة التي عصفت بأكواخ الفقراء أثناء حدوث ذلك الفيضان الرهيب الذي أحدثه نهر الفرات عام 1929م حيث نراه يسكب قطرات دمه مرة أخرى على الورق ليعبر عما تعانیه روحه من حزن وتمزق جراء ما حلّ بتلك الطبقات الكادحة المسحوقة من كوارث رهيبه حيث الأمواج العاتية التي اكتسحت كل شيء دون رحمة ومن خلال القصيدة يوجه نقده اللاذع أيضاً للسلطات الحاكمة آنذاك التي لم تتحسس هول الكارثة والمعاناة الكبرى والرزايا التي عصفت بالفقراء المنكوبين وبأكواخهم الطينية التي لايملكون غيرها ملجأ يأوون إليها فباتوا حيارى في العراء يلتحفون الأرض والسّماء تحت بصر وسمع الحكام القابعيين في قصورهم الفارهة ولم يقوموا بأدنى فعل لدرء الخطر عنهم حيث يقول: [6]

تَابِرَتْ مُحْتَجِجًا عَلَى السَّادَاتِ
بِتَجَنُّبِي لِسِيرَاتِي وَكُتَابِي
وَأَطْنُ أَفِيدَ مِنْ يِرَاعَةِ كِتَابِي
فِي هَذِهِ الأَرْجَاءِ عَنُودُ ثَقَابِي
فِي ذِمَّةِ التَّارِيخِ يَا أَقْلَامَنَا
شُعْبٌ هُوَ الوَاعِي هُوَ المُتَعَابِي
إِنِّي عَتِيتُ عَلَى الفُرَاتِ وَهَلْ تَرَى
يَتَنَازَلُ الطَّاعِي لِسَمْعِ عِتَابِي !
يَا رَبِّ أَيَّا نَرْتَجِي لِعِمَارَةِ الأَوْطَانِ
يُصْبِحُ مَنشَأً لِخِرَابِي
مَا لِلْفُرَاتِ المُسْتَشِيطِ بِغَيْظِهِ
يَسْطُو وَسَطُوئُهُ عَلَى الأَصْحَابِ !
السَّمُوحُ فِي تِلْكَ السَّهُولِ كَأَنَّمَا
رُحِفَتْ عَلَى تِلْكَ السَّهُولِ رَوَابِي
فَبِلَاغَةِ الأَعْيَانِ مَا أَجَدْتَ وَلَا
صَدَّ الفُرَاتُ فَصَاحَةَ النُّوَابِ !

إنه تهكم ممزوج بالمرارة على مجلسي النواب والأعيان آنذاك الذين لاهم لهم سوى إظهار براعتهم في خطبهم الرنانة والطنانة التي لاتغني ولا تسمن من جوع ولا غرو في ذلك ماداموا ينتمون الى دولة الأقطاب التي تحكمهم. ونكمن سخرية الشاعر في الأبيات التالية: البيت الثاني والثالث والخامس ،حيث نرى فيها مدى إستيائه من الحكام وما حلَّ بوطنه فيأتي وينتقد ذلك الوضع المزري بلهجة ناقدة ساخرة،ويستمر الشاعر في قصيدته (الفرات الطاعى) فيقول: [7]

سَلْ دَوْلَةَ الأَقْطَابِ هَلْ مِنْ مُنْقَدٍ
لِبُيُوتِهِ فِي دَوْلَةِ الأَقْطَابِ
وَجَرَائِدِ الكِتَابِ هَلْ مِنْ مَنَعَةٍ
لِرُزُوعِهِ بِجَرَائِدِ الكِتَابِ
مَنَاهِجِ الأَحْزَابِ مِنْ سَدَةٍ
مَرْدُومَةٍ بِمَنَاهِجِ الأَحْزَابِ
طَافَتْ حَنَائِي الكُوخِ فَوْقَ حَصَاةِ الغُرْفَى وَعَامَ النَّبِيثِ بِالأَخْشَابِ
وَلَقَدْ نَظَرْتُ أَثَاثَةَ الطَّافِي فَلَمْ
أُبْصِرْ سِوَى حَصْرِ وَجْرِدِ ثِيَابِ
بِقَرَاثَةِ ارْتَمَسَتْ بِلُجٍّ لَا تَسْرَى
إِلَّا الرُّؤُوسَ وَلَسَمَعَةٌ لِرِقَابِ
لَا نَجْوَةَ يَأْوِي لَهَا الرَّاعِي وَلَا
لِقَطِيعِهِ المَذْغُورِ نَشْرُ هِضَابِ

إلى أن يصل في قصيدته إلى ذروة المأساة حيث يصور كيف غدت الكلاب وأسراب الأطفال في آنٍ واحد تصارع الأمواج وتفعل المستحيل من أجل البقاء وتنقذ حياتها من الخطر الذي داهمها على حين غرة فشبه الأطفال بالطيور المفرقة بين الأمواج التي أخذت تطمها لتقضي عليها، وهذه من أشد أوجه النقد اللاذع حيث يقول: [8]

حَتَّى الْكِلَابِ بِيذَلَّةٍ وَمَهَانَةٍ
ذَلَّهِيَ قَدْ إِمْتَحَنَتْ بِخَوْضِ عِيَابِ
تَرْنُو إِلَى الْأَطْفَالِ كَالْأَسْرَابِ
تَرْنُو إِلَى الْأَطْفَالِ كَالْأَسْرَابِ
تَعْدُو مُفْرَفِرَةً أَمَامَ السَّمَاءِ كَيْ
تَسْجُو فَيَنْكُصُهَا عَلَى الْأَعْقَابِ
أَنْوَادِي الْأَحْبَابِ مَا لِي لَا أَرَى
فِي الشَّاطِئِينَ نَوَادِي الْأَحْبَابِ
هَوَتْ الرِّبَاغُ الْفَارِهَاتُ وَأَصْبَحَتْ
تِلْكَ الرِّحَابُ الْفُسْحُ عَيْرَ رَحَابِ!

إن العديد من رباعيات الشاعر علي الشترقي لاتخلو من روح التهكم والسخرية التي غالباً ما كان يوجهها للحكام الذين لاهم لهم سوى سرقة قوت الشعب والعيش على جماجم أصحاب الأرض الحقيقيين وجمع الضرائب من كذهم وعرقهم لبناء القصور لهم ولا بد أن يأتي اليوم الذي يثور فيه هؤلاء المسحوقين ليزيلوا عروش الظلم والفساد حيث يقول في إحدى الرباعيات: [9]

هَلْ زَادَ رِزْقِي ذُرًّا
حَتَّى تَزِيدَ الضَّرَائِبَ ؟
وَصَاحِبِ الْكُوخِ فَقْرًا
قَدْ بَاعَ حَتَّى الْمَعَاصِبِ !
أَنْتِ تَسْكُنُ قَصْرًا
مِنْ كَذِّ أَهْلِ الضَّرَائِبِ ؟
بِغَاثِ طَيْرِكَ يُضْرِي
وَتَسْرُقُومِي يُرَاقِبُ

ونحاول الان أن نتطرق إلى أشعار أخرى من الشاعر لدراستها وغالباً ماتكون لها وجهة سياسية ناقدة فراه عند احتلال الايطاليين لطرابلس الغرب وبرقة يقول: [10]

مَا لِرُومَا فَلَا سِتْوَى عَرْشِ رُومَا فَتَلَتْ دَيْلَهَا وَعَجَّتْ نُبَاخَا
جَبْنَتْ عَنِ نِضَالِ كُلِّ قَوِيٍّ فَأَعَارَتْ عَلَى الزَّوَايَا إِكْتِسَاخَا
نَطَّحَتْ (بِرَقَّةٍ) وَبِرَقَّةٍ وَأَحَاتْ مِنَ النَّخْلِ مَا عَرَفْنَ النَّطَّاحَا
أَبْنِي الْعَرَبِ لَا بِرَاحٍ عَنِ الْحَرْبِ وَلَا عَنِ الْفِخَارِ بِرَاحَا
وَرِمَالِ الصَّحْرَاءِ لَا تُرْهَبُ الْأَشْيَاحُ إِنْ جَنَّ جِينَةٌ وَرَوَاخَا

لقد شبه الشاعر الرومان بكلاب سانبه فتلت ذيلها وغدت تنبح على الضعفاء وأبت أن تلتقي بالأقوياء وذلك استهزاءً بهم وبفعلتهم النكراء.

ورأيناه في بعض رباعياته يقارن بين العقيق والخزف، والزخارف والتحف وبين التمر والحشف فهو يصور حالة العراق المأساوية حيث يُفضّل عندهم الردئ ويترك الاصيل وايضاً نراه يشتكي ويتذمّر من بعض الحكام لاستسلامهم للغرانز و وقوعهم في الاخطاء الغير مغفورها ،ويذكر بأن جنون شخص واحد يزعجه فكيف وإن اصبح المجتمع بأكمله مجنوناً، وهذه الأشعار لا تحتاج إلى شرح فهي سهلة الفهم والدرك من قبل الباحثين في الادب العربي: [11]

خَلَيْتِيَّ مَادَا يَقُولُ الْعِرَاقُ إِذَا قِيلَ بَعْدَادِهِ وَالنَّجَفُ
يَمُوجُ دَمًا قَلْبُ هَذَا الْعَقِيقِ لَسُوقِ تَزَاخَمَهُ بِالْحَزَفِ
أَسُوقِ الزُّخَارِفِ وَالنَّافِيَهَاتِ فِيكَ تُعَارِضُ سُوقَ النُّحْفِ
مَضَى زَمَنُ التَّمْرِ يَا غَارِسِينَ نُحْيِلًا وَجَاءَ زَمَانُ الْحَشْفِ
* * *

أَتَخَضَعُ دَوْلَةَ الْعُقْلَاءِ دَوْمًا لِلسُّلْطَانِ الْعِرَانِزِ وَالطَّبَاعِ
وَهَلْ لِلنَّاسِ أَعْرَاضٌ بِحَرْبٍ تَوَجُّعٌ غَيْرَ أَعْرَاضِ الضَّبَاعِ
مُيُولُ ضَارِيَاتٍ مُبْهَمَاتٍ تَحْفَظُنَا لِذُنُوبِنَا مِنْ صُرَاعِ
جُنُونِ الْفَرْدِ يُزَعِّجُنَا وَيُوذِي قَوْلٍ مِنْ جُنُونِ الْإِجْتِمَاعِ

لقد هام على الشرقى بوطنه وبلاده و رثى لحالها وطلب رقيها ورفعته ومجدها، و ردّد في شعره أقطار العروبة من مصر والشّام والحجاز و نجد و طرابلس وفلسطين.

وأقضى مضجعه خمول العراق ،فقال:
نَطَقَتْ بِحَاجَتِهَا الشُّعُوبُ وَفَصَحَتْ
وَأَرَى عِرَاقِي وَاجِمًا لَا يَنْطِقُ
وَكَأَنَّ هَذَا الشَّرْقَ سَفَرُ غُرَانِبِ
شَرَحُوا عَلَيْهِ الدَّارِجُونَ وَعَلَّوْا
خُتِمَتْ صَحَائِفُهُ وَجِنْنَا بَعْدَهَا
حَتَّى كَانَتْ فِيهِ فَصْلٌ مُلْحَقُ

و هو في بعض رباعياته يطلب بأن يتركوا عتاب بغداد فهي تملّ اللّوم والعتاب ، ويطلب من الناس الهدوء وآلا يحركوا ساكناً خوفاً على حرية الانتخابات،فهو في المقطوعات التي تاتي لاحقاًيسخر بكلّ جرأة من الوضع السّاندي في البلاد،من الانتهاكات ومن اضطهاد الشعب ، فالشّعب يكذّ ويتعب ولكن لا يحصل على قوته و إن تفوّه بكلمة يرمى في السّجن،واليك ما يقول: [12]

اطَّرَحُوا الِهْمَ وَلَا تَرَكِسُوا
فِي الْعَتَبِ ،بَعْدَادُ تَمَلُّ الْعَتَابِ
وَفَقْتُمْ لِلْخَيْرِ لَا تَعْطَسُوا
خَوْفًا عَلَى حُرِّيَةِ الْإِنْتِخَابِ
يَا أَيُّهَا الْبَيْتُ الَّذِي أَسَّسُوا
بُورِكَتٍ مِنْ بَيْتٍ لَهُ أَلْفُ بَابِ

* * *

لِّلْسَعِ نَعْمَلُ دَائِمًا
وَالنَّحْلِ نَعْمَلُ لِلْعَسَلِ
بِلَدِي رُؤُوسَ كَلْبُهُ
أَرَأَيْتَ مَزْرَعَةَ الْبَصَلِ

* * *

أَنْظُرْ إِلَى سَبْحَتِهِ
تَعْرِفُ مَا أَقُولُ لَكَ
شَيْطَانُهُ كَخَيْطِهَا
بَيْنَ الثُّقُوبِ قَدْ سَلَكَ
مَا اسْوَدَّتِ السَّبْحَةُ
لَسْنَا قَدْ أَرْتَنَا عَمَّا كَ

* * *

ذَهَبْتَ سَوَالِفُنَا فَهَلْ
عِنْدَ الْعَجُوزِ سَوَالِفُ
فِي جَانِبِي قَلْبِي تَهْبُ
عَوَاصِفٌ وَعَوَاطِفُ
إِتْمَامُ شُغْلِ السِّرْلِمَانِ
مُؤَافِقٌ وَمُخَالِفُ

* * *

إِنَّا تَنْقَارِعُنَا وَ أَوْرَاقُنَا
لَا يَدُ أَنْ تُسْحَبَ عَمَّا قَرِيبِ
نَصِيبُ هَذَا الْفُطْرِ لِمَلُومَةٍ
عَلَى الْكَرَاسِيِّ لَعِبْتَ يَا نَصِيبِ
يَا رِفَاقِي وَلَا تَرَى السَّعِينِ إِلَّا
جِسْمِيَّ وَ فَوْقَهُ رَأْسُ مَتِيعِ
قَدْ شَبَبْتُمْ أَطْرَافَ بَيْتِي نَارًا
وَأَدْعَيْتُمْ بِذَلِكَ تَنْوِيرُ بَيْتِي

تهذي بإصلاح البلادِ وفعَلنا عَطُ و مَط

أنظر لِمَوْضِعِ بِلَادِنَا غَاطٌ يُصَحِّحُ فِي غَاطِ

مَا تَغَيَّرَتْ يَا وُجُوهُ بِلَادِي
فَأَلَامَ الْأَنْقِانِ وَالْأَسْبَابِ
يَا رِفَاقِي هَيْهَاتَ يَسْعُدُ شَعْبُ
طَرْفَاهُ عَمَامَةٌ وَعِقالُ
وَإِذَا الْفَارُ وَالسَّنَانِيرُ عَاشَا

بِوَيْنَامٍ لَمْ يَفْلَحِ الْبِغَالُ

أَنَا أَشْكُو وَأَنْتَ تَشْكُو وَ كُلُّ النَّاسِ تَشْكُو وَالْبَعْضُ شَكْوَى الْجَمِيعِ
نعم؛ أيها القارئ المحترم، لقد شاهدنا فيما سبق من أبيات كيف ينتقد شاعرنا وضع العراق السياسي المتدهور خاصة البرلمانين منهم حيث لا يجدون نفعاً لمجتمعهم، وشغلهم الشاغل هو التصويت على ما يُؤتى به في البرلمان بالموافقة أو المخالفة.

ويأتى ضمن أبياتها من باب الإستهزاء والسخرية بالفاظ كـ«عط ومط» وغالباً ماتستخدم هكذا الفاظ للتمسخر والاستهزاء لأنّ الكلام باصلاح البلاد، كلّهُ هُراء وكلام زائف، فهو يرى أنّ وضع العراق غلط في غلط ولا صحيح فيه، ويرى عدم سعادة شعب بلاده، هو اولئك الأشخاص الذين يمسون بزمام الامور، فالكل يشكو هذا الوضع الغير مرضي، ونراه أيضاً يتحدث عن فقر مدينته النجف وأحلامها العريضة، تلك البلدة التي كماقال: [13]

فِيهَا مَفَاتِيحُ لِأَبْوَابِ
الرَّجَا وَ بِهَا مَغَالِقُ
وَلَهَا مَجَازٌ يَنْتَهِي
بِالسَّالِكِينَ إِلَى حَقَائِقِ
مَلَأَى بِكُلِّ طَرِيفَةٍ
مِنْ كُلِّ مُعْجِزَةٍ وَ خَارِقِ

ويقال إنّه حَارَ و رفاقه من الشباب في التماس الرزق، فألفوا«شركة مقاومة الفقر» وشرعوا بطبع الكتب والدواوين الشعرية.ثم ضربوا في القرى ومنازل الريفيين والعشائر،وباتوا في الخيام والعراء و حجرالطين التي تجري فيها الفئران وتصب السقوف ميزاب امطارها،و جابوا ساحات الحرب و دهاليز الخليفة وميادين الثورة و الجهاد...وقد كتب الشرقي صفحات صادقة من تجارب الشباب وتجولاته وتطلعاته، و صفحات تمتاز بنثرها القلق القافر المتعثر وتكاد تشبه أحاديث جان جاك روسو في اعترافاته.وقد قال: [14]

الدَّمْعُ عَاطِفَةٌ يَجِيشُ بِهَا الْأَسَى
لِتُرَاوِحِ الْأَشْجَانِ أَوْ لِتُرِيحَا
قَلْبُ الْجُفُونِ وَقَدْ أَرَوَّحَ بِالْبُكََا
عَيْنًا تَسِيلُ مُعْدَبًا وَمُرِيحَا
مَا هَذِهِ الْعَبْرَاتُ إِلَّا زُفْرَةٌ
بِرَدَّتْ فَعَادَتْ مَدْمَعًا مَسْفُوحَا
تَتَعَلَّقُ بِالْأَهْدَابِ فِي أَذْيَالِهَا
حِرْصًا وَ يَنْقُضُهَا الْبُكََا لِتَطِيحَا
أَخْشَى عَلَيْهَا أَنْ يَصْدَعَهَا الثَّرَى
دُرْرًا فَارْحِي عِقْدَهَا تَسْرِيحَا
دَرْسُ الصَّبَابَةِ كَمْ قَرَأْتُ بِلُوحِهِ
عِيرًا وَ وَحْيًا لِلْعَوَاطِفِ يُوحَى
فُصِّحَ الشُّعُورُ بِهِ،وَلَمْ أَكْ شَاكِيًا
إِلَّا لِكُونِي شَاعِرًا وَفَصِيحًا

في النَّفسِ أشياء، فهل مَوْضِعُ
حُرِّ الفُضَاءِ لِأَشْتَكِي وَأُبُوحًا؟

فهويخفي في صدره اشياء كثيرة لا يستطيع أن يبوح بها ،لأنّ بلاده لا مكان للحرية فيها ،فالحرية تُلفظ ولا يُعمل بها،شعاراتٌ تُكتب ويُهتف بها من قِبَل السِّيَاسيين في الدولة ،و الشَّعب محرومٌ منها ولو أراد النطق بكلمة أُخرست الكلمة في الأرحام وكتب عليها أن لا ترى النور،نعم ؛الشَّاعر لا يرى مكاناً أو موقعاً يلجأ إليه ويبوح له بما يُكنُّ في صدره ويشتكى إليه ثمَّ يذكر كثرة الشُّوك في بلاده دون نبتة الشَّيح،فكل ما هو موجود في بلاده يدعو إلى الالم والحزن فيبادر بانتقاداته هذه علماً تجدي نفعاً،بعد ذلك يأتي بحادثة الطوفان ،ذلك العذاب الإلهي الذي أُبتلي به قوم نوح ولم ينجو منه إلا من ركب السفينة،أما بالنسبة للأناس الذين هم من أبناء جلدته،لا يرى لهم أي منجى من ذلك الطوفان ،لأنَّ الكلَّ إتَّخذ مسيراً أعوج يهدي إلى الضلال وتركوا الصراط المستقيم ، الكلَّ غارق في الاثم وارتكاب الكبائر من الذنوب.والشاعر يحاول جاهداً أن يهدي قومه إلى ما هو صحيح وان جلبله الموت فنراه لا يخشى الموت في سبيل الهداية إلى سواء السبيل،فيشبهه نفسه بالعود،لأنَّ العود عند احتراقه تفوح منه رائحة زكية طيبة وها هي الأبيات المنشودة: [15]

مَا أَكْثَرَ الشُّوكَ الْمُؤَلِّمَ لِلْحَشَى
فِي ذِي الْبِلَادِ، وَمَا أَقَلَّ الشَّيْخَا [16]
عَمَ الْبِلَى قَلُّوا أَنْ طُوفَانَا أَتَى
هَذَا الْوَرَى لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ نُوحَا
مِنْ كُلِّ مَنْ مَلَأَ الضَّلَالَ رِدَاءَهُ
وَالْإِفْكَ يَمَلَأُ ثَغْرَهُ نَسِيحَا
فَلَأَنْصَحَنَّ قَوْمِي وَإِنْ جَلَبَ الرَّدَى
فَالْعُودُ يَحْرِقُ نَفْسَهُ لِيَفُوحَا
قَالُوا: الصَّحِيحُ نَرَى قُلْتُ تَفَقَّاتُ
عَيْنٌ تَرُونَ بِهَا السَّقِيمَ صَحِيحَا
وَتَسَلَفُوا بَشَرَى بِرَجْعَةِ يَوْسُفَ
أَتَى يَصْدُقُوا فَلْيَنْشِئُونِي الرَّيْحَا
يَا دِيمَةَ الْإِصْلَاحِ رُشِّي مَوْطِنِي
فَعَسَاهُ يَنْبُثُ مُصْلِحًا وَنَصِيحَا

ولكن هل النصيحة تُجدي نفعاً غير جلب الموت للشاعر،فهو يريد إحراق نفسه لينتفع به قومه،و صورالسخرية جلية في ذكره صفات أعينهم عندما ترى السقيم سليماً،و هم لا يعرفون كوعهم من بوعهم. وهذه مقطوعة آخر في النقد البرئ والهادئ يقول فيها: [17]

هَذِي الرَّوْسُ وَلَكِنْ كُلُّهَا وَجَعٌ،
وَذِي الْعِيُونُ وَلَكِنْ كُلُّهَا رَمْدُ
وَكَمْ صُدُورٍ بِهَذَا الْقَطْرِ فَارَعَةً
جَوْفَاءَ لَيْسَ بِهَا قَلْبٌ وَ لَا كِبْدُ
صُدُورٌ أُنْدِيَّةٌ فِي جَهْلِهَا انْتَفَخَتْ
حَتَّى تَشَابَهَ فِيهَا الْهَرُّ وَالْأَسْدُ

لاحظ أيها المتذوق للأدب كيف هادن الشاعر المغالين والمندفعين والمعتدلين المسابيرين ونعى برفاهة العيش واكتفى بالنقد البرئ والهادئ، ففراه يسخر بطريقة هادئة حيث يأتي مع الرؤوس بالوجع والصداع وهو مرض الرأس، ويأتي بالرمد للعين وهو مرض يختص بها. وأيضاً يأتي ويبين الصدور وكيف هي؟ فيجيب قائلًا بأنها لا يوجد فيها لا قلب ولا كبد، هي جوفاء خالية من العقول يخيم عليها الجهل، فهي من تفخة بجهلها، ويستوي فيها الهرّ والأسد وهنا تكمن السخرية حيث جعل القطط تشابه الأسود. من قصائده التي تصور الحياة والمشكلات السياسية والاجتماعية قصيدته المعنونة بقصيدته «مناجاة النجوم» وهي من أوائل ما كتب من الشعر: [18]

أَمَالِنَةُ الأَبْعَادِ عِلْمًا وَحِكْمَةً تَعَالَيْتِ أَنْ يَحْوِي صِفَاتِكَ شَاعِرُ
تَشَدُّتْكَ كَمْ طَالَعَتِ قَلْبِي خَائِرًا وَكَمْ بَاتَ يَسْتَقْرِيكَ مِثْلِي سَاهِرُ
أَهْيَمُ إِذَا سَابَتِ غَدَائِرُ لَيْلَتِي وَمَا أَنَا مِمَّنْ هَيَمَتَهُ الْغَدَائِرُ
وَلَكِنِّي لِي بَيْنَ النُّجُومِ سَرِيرَةٌ سَابِلِي وَتَبَقَى يَوْمَ تَبَلَى السَّرَائِرُ
سَلَامٌ عَلَى أَهْلِ الْقُبُورِ فَبُنِّي بَلِيَّتٍ بِمَوْتِي مَا حَوَّتْهَا الْمَقَابِرُ

ينتقد الشاعر فيما ذكرناه ما حلّ بالعراق من مشاكل سياسية واجتماعية ويصور الأحياء من الناس موتى، فيسخر منهم أشد سخرية حيث يصفهم بأموات لم يدفنوا بعد، أي أحياء في الظاهر أموات في حقيقة الأمر، فالشاعر أثبتني بهذا أناس أموات صامتين ساكتين راضين بما يصيبهم من ظلم واضطهاد.

أما في ثنائياته أو (مزدوجاته) فقد أطلق صرخة ناقدة للوضع السياسي آنذاك كما لم تخل من موعظة وحكمة يقول فيها: [19]

عَازِفًا فَوْقَ كَوْمَةٍ مِنْ جَمَاجِمٍ بِالِيَاتِ مِنْ أَقْدَمِ الأَحْقَابِ
بَاحِثًا فِي رُفَاتِهَا الْمَتْرُوكِ عَنْ رُؤُوسِ الأَعْيَانِ وَالنُّوَابِ
لَيْتَهُ حَلَّ سَاعَةَ الإِنْعَادِ بِرِلْمَانٍ يَضِيغُ النَّأخِبِينَ
بَسَاحِثٍ عَنِ مَكَا فَحَاتِ الجِرَادِ وَتُرِيدُ بَلِيَّةَ الزَّرَاعِينَا

والشّرقى غالباً ما يلجأ إلى الرمز للتعبير عما يجول في نفسه من احتجاج على تلك الأوضاع التي كانت تسود في العراق . وشعره خال من السّطحية والأسفاف والغموض والتعقيد , وهو يكثر من التشبيهات وله أسلوبه الخاص والمميز ويعالج موضوعاته بروح معاصرة بعيدا عن المباشرة والنقل الآلى بل حافل بالصور الجديدة والمبتكرة والمعاني المستحدثة والعبارات الرشيقة . وعندما ينشد الشّرقى شعرا يعبر عن تجربة صادقة حية وفي المواقف الوطنية نراه يصعد الحدث , ويثير المشاعر , ويلهب الأحاسيس لقضية عادلة ويجعلها في حالة تأجج وغليان . فعندما تطعن كرامة الأمة في الصميم من قبل أعدائها , وتداس حقوق الشعب وتصبح خيرات الوطن نهبا للأجنبي الغاصب لا يكون للشاعر الصادق مع نفسه ومع شعبه غير خيار الإستنهاض والثورة على هذا العدو الذّخيل الذي لا ينتمي الى الوطن بصلة ويريد أن يتحكم برقاب الناس ظلماً وعدواناً.

[20]

وقصيدة (منجل الفلاح) تعبّر خير تعبير عن تلك الرّوى فهو يدين فيها أولئك الحكام الذين بنوا قصورهم الشّاهقة والمنيفة، وسعادتهم ونعيمهم الدنيوي على جماجم الفقراء والمسحوقين والمحرومين ويبين في هذه القصيدة الجميلة كيف سرق الحكام الطغاة قوت الشعب وهم غارقون في ملذاتهم ولهوهم وبذخهم دون الالتفات لمعاناة تلك الطبقات المسحوقة والمحرومة التي غدت جيلاً من الأشباح حيث يقول في تلك القصيدة: [21]

أَتَرَانِي بَيْنَ الْقُرَى وَالصُّوَا حِي

طِفْتُ ظَهْرًا وَفِي يَدِي مِصْبَاحِي
إِنْ تَفْتَتَشْ عَنِ ارْتِيَاكِ بِلَادِ
فَتَقْدَقُ شُؤْنَهَا فِي النُّوَاكِ
وَإِذَا ارْتَاكِتِ الْبِلَادُ تَبَدَّدَتْ
فِي قَرَاهَا عِلَانِمُ الْإِرْتِيَاكِ
أُرَهَقَتْ شِدَّةُ الْمَظَالِمِ جِيْلِي
فَإِذَا هُمْ جِيْلٌ مِنَ الْأَشْيَاكِ
مَا لِهَذَا الْفَلَاكِ فِي الْأَرْضِ رُوحُ
أَهْوَمِنْ مَعَشَرٍ بِإِلَّا أَرْوَاكِ ؟
هُوَ فِي جَنَّةٍ يَنْالُ عَذَابًا
وَهُوَ تَحْتَ الْأَشْجَارِ أَجْرُدُ ضَاكِ !
وَقَرَى الثَّمَلِ لَهْفٌ نَفْسِي أَثْرَى
مِنْ قَرَاهِ الْأَمِنْ الْأَتْرَاكِ
إِنْ رَغَيْتِ حَوْلَ بَيْتِهِ بَقْرَاتِ
جَاوَبَتْهَا كِبَاشَةٌ يَنْطَاكِ
وَإِذَا لَمْ تُفِدِهِ السُّوَاكِ زَرَعِ
فَبِمَاذَا تَفِيئِدُهُ أَلْوَاكِ
سَعِدُ إِنِّي قَدْ أَطْرَحْتُ يِرَاكِ
وَ تَنْوَالْتُ مِْبَضْعَ الْجِرَاكِ
لَا رَعَى اللهُ مَعَشَرًا مَدْنِيًّا
أَفْسُدُوا عَيْشَ غَاْمِلٍ لِصَلَاكِ
رُبُّ قَصْرِ مِنْ فَوْقِ بَجَلَةٍ كَالطَّأْوُسِ
لِلزُّهُوِّ نَاشِرًا بِجَنَاحِ
أَتْرَاهُ مَدَّتُهُ بَجَلَةٌ أَنْفَا ؟
حِينَ فَاحَتْ رَوَاكِحُ الْقَدَاكِ
نُصْبِيوهُ كَمَنْبِرٍ مِنْ وُرُودِ
فَالْمِرَاقِي مِنْ سَوَسَنِ وَأَقَاكِ
لَوْ كَشَفْنَا أَطْبَاقَهُ مِنْ أَسَاسِ
لَوْجَدْنَاهُ مِنْجَلُ الْفَلَاكِ !
يَا ضَعِيفًا أَرَى السُّوَلَاةَ عَلَيْهِ
أَعْرَضَتْ عَنِ نِصَاكِحِ النَّصَاكِحِ
أُرَهَقَتْهُ ضِرَانِبٌ بَاهِضَاتِ
وَذِيوُنٌ ثَقِيْلِيَّةٌ الْأَرْبَاسَاكِ
لَمْ يَفِدِهِ سِلَاحُهُ فَهُوَ لَيْتٌ
قَتَلُوهُ صَبْرًا بِغَيْرِ سِلَاحِ !
لَوْ نَفَدْنَا لِقَلْبِ ذَاكَ الْمَعْنَى
لَوْجَدْنَاهُ مُثَخِّنًا بِالْجِرَاكِ !

خُصَّ مِنْ نَهْرِهِ وَمِنْ شَاطِئِهِ
بِخَسْبِ الْمَرْعَى وَبِالضَّحْضَاحِ
فِي مَرْوَجٍ مِنْ حَوْلِهَا قَدْ تَنَاعَتْ
كُنَلٌ صَدَاحَةٌ إِلَى صَدَاحِ
يَأْرُبُوغاً حَيَوَانُهَا يَتَغَنَّى
بِسُرُورٍ وَأَهْلُهَا فِي نِيَاحِ
وَمَرَاعٍ سُرُوحُهَا أَنْ تَتَنَاعَتْ
جَاوِبَتْهَا رُعَاتُهَا بِصِيَاحِ
كَمْ عَلَى أَرْضِهَا نَكْتُ بَعُودِي
وَعَلَى أَهْلِهَا صَفَقْتُ بِرَاحِي
تَسْعَدُ الشَّاتَا فِي الْمَرَاعِي
وَرَاعِي الشَّاتَا يَلْقَى شَقَاءَهُ فِي الْمَرَاحِ
الرَّطَابُ الْفِصَاحُ فِي الْفُطْرِ خُرْسٌ
كَلُّ عَيْنِي عَلَى الرَّطَابِ الْفِصَاحِ
أَسَكَّتْهَا سُودُ اللَّيَالِي اللَّتَوَاتِي
مَرَّجَتْ جِدَّهَا لَنَا بِمَزَاحِ
قَدْ قَرَأْنَا إِنْجِيلَ تِلْكَ اللَّيَالِي
وَقَرَأْنَا الْأَصْحَاحَ بِالْأَصْحَاحِ
وَإِذَا النَّاسُ كَلَّمُهُمْ فِي مَسَاءِ
وَعَدَّتْهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِصَبَاحِ

إنه يتكلم في قصيدة «منجل الفلاح» عن قرى النمل وعن قصور الحكام وما بينهما، تلك الهوة السحيقة وهي شدة المظالم الذي حولت جيله إلى جيل من الأشباح من شدة الفقر والمعاناة والأضطهاد ترى لو كان شاعرنا علي الشرقي حياً في هذا الزمن فماذا كان عساه أن يقول عن المحتالين وجرانمهم وعن حيتان الفساد والسرفقات التي أتخمها المال الحرام وعن اليوساء الذين يعيشون في أغنى بلد في العالم وسط أكوام الأزيال وعن بيوت الصفيح المنتشرة على مجمل مساحة العراق؟. رحماك يا شاعرنا الكبير علي الشرقي لو كنت حياً الى هذه اللحظة لرأيت الأعاجيب في وطنك. [22]

نعم بهكذا فن من فنون الشعر العربي استطاع علي الشرقي والكثير من شعراء العراق تبيان قضاياهم السياسية والاجتماعية والقضايا الأخرى ، و استطاعوا أن يكشفوا الكثير من الأفتنة الزانفة لإولئك السياسيين المخادعين لشعوبهم.